

الغزالي أعجب شخصيته في تاريخ الإسلام للأستاذ قدرى حافظ طوقان



الغزالي حجة
الإسلام ودين
الدين ومن أكبر
أعلام الفكر الذين
يمتز بهم الإسلام
ويفخر . ظهر في
القرن الخامس
للهجرة في عصر
سادت فيه آراء
الشك
والاختلافات
وعمت أوساطه

الغزالي في المتفردات والمذاهب . وكان لهذا أثر على حياة الغزالي كما كان لنتائجه الصوفية والروحية أثر كبير عليها . ففرغ إلى الانتصار للدين وسلك في ذلك مسلكاً جديداً لم يسلكه أحد من قبله ، حتى قال (رينان) : « إن الغزالي هو الوحيد بين الفلاسفة المسلمين الذي انتهج لنفسه طريقاً خاصاً في التفكير ... » واجه الغزالي في أول حياته مذاهب مختلفة من كلام وباطنية وفلسفة ونسوف وساورته نزعات التشكيك والتحليل المنطوق ، واحتار في أمره ولم يدر أيها يتبع . وقد لجأ إلى دراسة هذه المذاهب واختبار حسناتها وأوسايتها رائده في ذلك الوصول إلى الحقيقة التي تروى النفس وتثير العقل ، فخاض بحماسة التفكير وتوغل في كل مظلمة وانفتح على كل مشكلة وورطة ، وحص الفروق والمقارنات ليميز بين محض ومبطل ومعتن ومبتدع . درس الفلسفة ليوقف على كنهها ، ودرس علم الكلام ليطالع على غايات التكلمين ومحاولاتهم ، ودرس الصوفية ليمر على سرها . وكان في دراساته واسع الصدر

سما بتفكيره رحلتي ، وقد أدرك أنه لا يمكن المحقق أو الباحث عن الحقيقة المتطش لها أن يستوعب سبلها بتير الجمع بين سائر مظاهرها مما يقال للشيء ، أو عليه

إن هذا الطريق الذي سار عليه الغزالي يبدل على قوة شخصيته وعلى إيمانه بنفسه وثقته بعواضله ومزاياه مما ساعده في الانتصار على خصومه وعلى الفلاسفة .

والغزالي عتاز على غيره من علماء الكلام في كونه قرب الدين من العقل الاعتيادي وكشف دقائقه أمام أذهان العامة ، في حين أن الكثيرين من الفقهاء ، ورجال الدين في عصره والمصور التي سبقته ساروا في تكبيرهم على أساس من الغموض وفي بحار من العميات والأسرار ، وذلك مخافة على شخصياتهم من بروزها على حقيقتها ضعيفة واهية ، وحشية من نفوسهم أن يتلاشى إذا وضحت الأمور وزال الغموض .

والغزالي حين قرب الدين لم ينزل به ، بل استطاع بما أوتي من قوة المارضة وصفاء التفكير وسعة الاطلاع ؛ أن يرفع الإيمان من « حضيض السذاجة إلى قوة التفكير العالي مما جعل المفكرين في الشرق والغرب يرون فيه المثل الأعلى للتفكير الإلهي والنور المبدد لروح الشك والتشاؤم ... » وقد قال سارطون في هذا الشأن : « إن أثر الغزالي في العلم الإلهي أعظم من أثر القديس توما ... »

درس الغزالي الفلسفة « ... ولم يكن الذي عمله على دراستها مجرد شغف بالعلم بل كان يتطلع إلى مخرج من الشكوك التي كان يثيرها عقله ... » يعطمئن قلبه ويتذوق الحقيقة الملياً . وخرج من دراساته هذه وسياحاته ونقلاته بكتب قيمة نفيسة أهمها كتاب تهافت الفلاسفة ، وهو عمل عظيم لا يخلو من قيمة فلسفية إذ هو « نعمة دراسة محكمة وتفكير طويل ، يبين المسائل الكبرى التي كانت محل خلاف بين الدين والفلسفة ... » مما يدل على طول نظر في الفلسفة ودراسة وافية لها . وقد يلتم فيه أقصى حدود الشك فسبق زعيم الشكيين (دايفيد هيوم) بسجمة قرون في الرد على نظرية الملة والمعلول

وأورد الغزالي في كتاب الاحياء قواعد ومبادئ، ليسير عليها العلم والتعلم . ويجد التصفح لها أنها سامية الغايات فيها تحليل نفسى دقيق يدل على النضج وخصب القريحة وعلى معرفته التامة بنفسية العلم والتعلم . ويرى فيها المؤرخون أنها لا تقل عن النظريات الحديثة في علم التربية . وكذلك وضع الغزالي مبادئ جلية في آداب المناظرة هي في الواقع الدستور الذى يجب أن يسلكه المتناظرون وأصحاب الجدل والبحث . وفى رأى الغزالي أن الخروج على هذه الآداب قد أشاع الخصومات وأنشأ المداوات لأن الناية من الجدل والمناظرة لم تكن فى الحقيقة كما يجب أن يكون ، بل كانت التئلب على الخصم والتفوق على الناظر

والغزالي لم يذهب مذهب المعتزلة فى أن العمل يكون حسناً أو قبيحاً لأنه حسن أو قبيح بحكم العقل . كما أنه لم يقل أنه حسن أو قبيح بحكم الشرع ، لكنه قال أن الحسن والقبح يرجعان إلى العقل والشرع معاً . فالعمل خير إذا وافق العقل والشرع ، وشر إذا خالف العقل والشرع . وهكذا فاس الخير والشر بمقياس العقل والشرع

وتوفر الغزالي على بحث الأخلاق فأجاد فى هذا الباب وترك أبقى الآثار وأرفعها شأناً ضمنها كتابه الشهير (احياء علوم الدين) لقد نهج الغزالي فى فلسفة الأخلاق الناحية الدينية من حيث النظر والتقدير والناحية التحليلية النفسية من حيث التناول والوصف والتفسير

والغزالي يجعل للعلم منطقة وللدين منطقة . ولكل مزاياها وأحوالها الخاصة والنفس البشرية تنصل بالمنطقتين ، فهى تنصل بالمال الحسى عن طريق المعرفة والبرهان وبالعالم الروحى عن طريق الاختبار الشخصى والكشف

ويرى أن السعادة الروحية لا تأتى من الإيمان الفلسفى بل بالعمل المؤدى إلى الاتصال بالروح الأعلى . ومن هنا يتبين أن الغزالي حين يتناول الصوفية والروحيات فإنه يحررها من سخافات غلايتها ، وحين يتناول الدين فإنه يحرره من أطوار الكلاميين ثم « يمزج حيوية الأول بحيوية الثانى ويولد منها مذهباً روحياً يقبله العقل ولا يدحضه البرهان ... »

لقد وصل الغزالي من دراساته الفلسفية وغيرها إلى ما وصل إليه (كانت) فيما بعد ، من أن العقل ليس متقلاً بالاحاطة بجميع المطالب ولا كاشفاً الغطاء عن جميع المضلات ، وإنه لا بد من الرجوع إلى القلب وهو الذى يستطيع أن يدرك الحقائق الإلهية بالدوق والكشف وذلك بعد نصفية النفس بالعبادات والرياضات الصوفية . وهو بذلك حاول أن يخضع العلم والعقل للوحى والدين لكنى وصل إلى الحقيقة الملياً وعلى الرغم من محاولاته إخضاع العلم والعقل للوحى والدين كان يعجد العقل ويرى فيه (كما جاء فى كتاب إحياء علوم الدين) منبع العلم ومطلمه وأساسه وإن العلم يجرى منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس وقد أتى بجملة أحاديث نبوية تشير إلى مقام العقل وشرفه .

والغزالي لم يأخذ بأقوال فلاسفة اليونان ، بل كان يعرضها ويسلط عليها العقل فيخرج بنقد سائب ورأى عبقرى . لقد اعترض على قول (جالينوس) اليونانى « ... إن الشمس لا تقبل الاندماج » ويبتدل على ذلك بأن الارصاد لم تدل على أى تبدل فى حرارة الشمس أو حجمها . وهنا يأخذ الغزالي هذا القول ، ويرى فيه خطأ وخروجاً عن الصواب . فأرصاد التقدماء ليست إلا على التقريب ، والشمس قد تحف حرارتها ، وينقص حجمها دون أن يلاحظ الناس ذلك فى مدة قصيرة ، وعلى ذلك يخرج الغزالي رأى صحيح هو ما توصل علماء الفلك الحديث . فلقد توصل العلم إلى أن الشمس تحتضر على حد تعبير السير جيمز جيتز وأنها فى تناقص . وقد حسبوا ما ينقص منها (على الرغم من القوى والذخيرة التى تصل إليها بعوامل شتى) فوجدوا أنها تفقد مادتها عن طريق الاشعاع (٣٦٠) ألف مليون طن فى كل يوم .

وللغزالي آراء تدل على حسن إيمانه بالبشرية وصفاء نظره إلى الخليقة الانسانية وهو لم يأخذ بأقوال الذين يحملون الشر من كبراً فى طبع الانسان ، بل أنه أحسن اعتقاده فى النشأة فجعله خيراً . ويرى أن الفطرة الانسانية قابلة لكل شئ ، فالخير يكتب بالتربية وكذلك الشر . وفى رأيه أن الانسان لا يميل بفطرته إلى إحدى الجهتين وإنما هو يسعد ويشقى تبعاً لعوامل عديدة تتعلق بالأبوين والمحيط فىر حاسب أى حساب للوراثة وما إليها

قيمة ومقام عند الغربيين وقد أحلوه المسكان اللائق ودرسوا مؤلفاته ورسائله وكتبه وكتبوا عنه المؤلفات الطوال . ومنهم من يتمسك له ويرى فيه واحداً من أربعة . يقول الدكتور (زوعر) : « كل باحث في تاريخ الإسلام يلتقي بأربعة من أرائك الفطاحل العظام وهم : محمد بن المسلمين والبخاري والأشعري والنزالي . . . » ويرى (دي بور) أن النزالي أعجب شخصية في تاريخ الإسلام . وكتب (كارادي فو) عن النزالي وقد أنصفه بعض الاوصاف . وهناك رسائل كثيرة كتبت عن النزالي بالانكليزية والفرنسية والألمانية ، وهي تدل على أنه شغل الباحثين والستشرقين أمثال الدكتور مولتر ، وماكدونالد ، وستيفيلد وشمولدز ودي بور والأب يويج وماسينيون وجولدزبير وغيرهم ، فكانت محل اهتمامهم وعنايتهم ، كما تدل على فضله وأثره الكبيرين في العلوم وخاصة في العلوم الالهية والصوفية والأخلاق

فرري حافظ طوفان

نابلس

وقد أعرض النزالي عن معرفة هذا العالم عن طريق العقل « ولكنه أدرك المسألة الدينية إدراكاً أعمق من إدراك فلاسفة عصره . . . » فقد كان هؤلاء الفلاسفة عقليين شأن أسلافهم اليونان فاعتبروا أن أمور الدين نعمة لتصوير الشارع ووجهه ، بل هو نعمة لهواه . واعتبروا الدين انقياداً أعمى أو ضرباً من المعرفة فيه حقائق أدنى من حقائق الفلسفة . وقد عارض النزالي هذا الرأي واعتبر الدين ذوقاً باطنياً لا مجرد أحكام شرعية أو عقائد ، بل هوشياً أكثر من ذلك ، وأنه شيء تتذوقه الروح . ويطلق (دي بور) على هذا فيقول « ... ولا يتاح لكل إنسان أن يبلغ في هذا الأمر مبلغ النزالي ، والذين لا يستطيعون متابعتها إذ يعرج في مدارج السالكين متخطياً المعارف المكتبية كلها ، لا عيى لهم عن الاقرار بأن محاولاته في الوصول إلى الله ليست أقل شأنًا في تاريخ العقل الانساني من مذاهب فلاسفة عصره ، وإن بدت هذه المذاهب أدنى إلى اليقين ، لأن أصحابها إنما ساروا في بلاد تدكشفها غيرهم من قبل ... »

وجاء في كتاب نهاية الميزان ما يشير إلى أن الشك هو طريق اليقين لأن الشكوك هي الموجبة للحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يعبر ، ومن لم يعبر بقي في العمى والضلال . ولم يفت النزالي أن يفتيه في مواطن عديدة من كتبه إلى أنه : « ... يجب على العلم أن يتجنب كل ما يثير الشك في نفوس الضعفاء ، وخص المرشد على الاقتصار مع العامة على التداول المألوف ... » فهو يرى أن يستعمل الشك بمقدار محدود وهذا النهج « ... يبين أن النزالي يحرص على وحدة الهيئة الاجتماعية ، وينفر من كل ما يقربها من الانحلال ... »

والمجال لا يتسع لمرض الآراء المختلفة التي أوردتها النزالي في كتبه في الأخلاق والآداب والحقوق والواجبات . ولكن يمكن القول أنه ترك تراثاً ضخماً في كتبه وتأليفه تجمله من الخالدين وهو يمد بحق إمام أهل البيان في الأسلوب العلمي والأسلوب الالهامي ومزاج من علوم شتى « ... أتصنحها البحث وسعلمها التفكيك وأضفتها تجاربه وشكوكه الفاسية التي عاناها في نشأته ... »

وأخيراً نمرض انعام النزالي عند الغربيين فنقول : كان للنزالي

آلام فتر

للأستاذ أحمد حسن الزيات

هي القصة العالمية الواقعية الخالدة للشاعر الفيلسوف

« جوته » الألماني .

سور فيها : عواطف الشاب في وقت نزوءه إلى الحب وولوعه بالجمال واتحاده مع الطبيعة... وقد قال عنها لصديقه (أكيرمان)

« كل امرئ يأتي عليه حين من الدهر يظن فيه أن (آلام فتر) إنما كتبت له خاصة » .

ترجمتها العربية تنفق مع أسلها في قوة الأسلوب ودقته وأناقته وجماله... وهي مثال للترجمة الأمنية التي تنقل الصورة والفكرة وما يقوم بها من الروح والخيال والمعلقة ...

يطلب من مجلة الرسالة ونمها ٤٠ قرشاً عدا أجرة البريد